عَبْدُاللهِ بْنُ رَوَاحَة

يَا نَفْسُ، إلَّا تُقْتَلِي تَمُوتِي!!

عندما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يجلس مُستخفِيًا من كفار قريش مع الوفد القادم من المدينة هناك عند مشارف مكة، يُبايع اثنى عشر نقيبًا من الأنصار بَيْعَة العقَبَةِ الأولى، كان «عبد الله بن رَوَاحة» واحدًا من هؤلاء النُّقباء - حَمَلَةِ الإسلام إلى المدينة، والذين مهَّدت بيعتهم هذه للهجرة التى كانت بِدَوْرها مُنطَلقًا رائعًا لدين الله، الإسلام...

وعندما كان الرسول عليه الصلاة والسلام يُبايع فى العام التالى ثلاثة وسبعين من الأنصار أهل المدينة بَيْعَةَ العَقَبة الثانية، كان «ابن رواحة» العظيم واحدًا من النُّقباء المبايعين...

وبعد هجرة الرسول وأصحابه إلى المدينة واستقرارهم بها،

كان عبد الله بن رواحة من أكثر الأنصار عملا لِنُصرة الدين ودَعْم بِنائه، وكـان من أكثرهم يقـظة لمكايـد عبد الله بن أُبَيّ الذى كان أهل المدينة يتهيئون لتتـويجه ملكًـا عليها قبـل أن يهاجر الإسلام إليها، والذى لم تُبارِح حُلْقومَه مرارة الفرصـة الضائعة، فمضى يستعمـل دهاءه فى الكيـد للإسـلام. فى حين مضى عبد الله بن رواحة يتعَقَّب هذا الدهـاء ببصيرة مُنيـرة، أفْسـدت عـلى «ابن أُبَيّ» أكـثر مُنـاوراتـه، وشَلَّت حـركـة دهائه.. !!

وكان «ابن رَوَاحَة» رضى الله عنه، كاتبًا فى بيئة لا عَهْد لها بالكتابة إلا يسيرًا..

وكان شاعرًا، ينطلق الشعر من بين ثناياه عَذْبًا قويًّا..

ومنذ أسلَم، وضع مَقدرته الشعرية فى خدمة الإسلام..

وكان الرسول يحب شِعره ويستزيده منه..

جلس عليه السلام يومًا مع أصحابه، وأقبل عبد الله بن رواحة، فسأله النبى:

«كيف تقول الشِّعر إذا أردتَ أن تقول»..؟؟

فأجاب عبد الله: «أنظُر فى ذاك ثم أقول»..

ومضى على البديهة ينشد:

يـاهـاشم الخـير إن الله فضّلكم
عـلى البريـة فضـلاً مـا لـه غِـيَرُ
إنى تفـرَّستُ فيـك الخـير أعـرفُـه
فِـراسةً خَـالَفتهمْ فى الذى نـظروا
ولو سألْتَ أو استنْصَـرت بعضهمو
فى حلِّ أمرك مـارَدُّوا ولا نَصَروا
فثبَّـت الله مـا آتـاك من حَـسَنٍ
تثبيت موسى ونَصْرًا كالذى نُصِرُوا

فسُرَّ الرسول ورضى وقال له:

«وإياك، فَثَبَّتَ الله»..

وحين كان الرسول عليه الصلاة والسلام يطوف بالبيت فى عمرة القضاء كان ابن رواحة بين يديه ينشد من رجزه:

يارب لولا أنت ما اهتدَيْنا ولا تصـدَّقْنا ولا صلَّيْنـا
فـأنْـزِلَنْ سَكينـةً علينـا وثَبِّت الأقدام إن لاقَيْنا
إن الَّذِين قد بَغَوْا علينا إذا أرادوا فتنـةً أبَيْنـا

وكان المسلمون يرددون أنشودته الجميلة..

ويحزن الشاعر المُكْثِر، حين تنزل الآية الكريمة:

﴿والشُّعراءُ يَتبعهم الغاوُون﴾..

ولكنه يَسْتَرِدُّ غِبْطَة نفسه حين تنزل آية أخرى:

﴿إلّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وذكروا الله كثيرًا، وانتَصروا من بعد ما ظُلموا...﴾.

* * *

وحين يُضطر الإسلام لخوض القتال دفاعًا عن نفسه، يحمل «ابن رَوَاحة» سيفه فى مَشاهِد «بَدْر» و «أُحُد» و «الخندق» و «الحُدَيْبِيَة» و «خَيْبر» جاعلًا شعاره دَوْمًا هذه الكلمات من شعره وقَصِيدِه:

«يا نَفْسُ إلّا تُقْتَلى تَمُوتى»..

وصائحًا فى المشركين فى كل معركة وغَزَاة:

خَلُّوا بَنى الكُفّارِ عن سبيله
خَلوا، فَكُلُّ الخير فى رسولِه

* * *

وجاءتْ غزوة «مُؤْتَة»..

وكان عبد الله ثالث الأمراء، كما أسلفنا فى الحديث عن «زيد» و «جعفر»..

ووقف «ابن رواحة» رضى الله عنه والجيش يتأهَّب لمغادرة المدينة..

وقف يقول وينشد:

لكننى أسأل الرحمٰن مغفرةً ... وضَرْبةذات فَرْع تَقْذف الزبدا
أو طعنةً بيدىْ حرَّانَ مُجهزة ... بحربة تنفذ الأحشاء والكَبِدا
حتى يُقال إذا مرُّوا عـلى جَدَثى ... يا أرشَدَ الله من غازٍ، وقدرشَدا

أجَلْ.. تلك كانت أمنيته، ولا شىء سواها.. ضربة سيف أو طعنة رُمح، تنقُله إلى عالم الشهداء الظافرين..!!

* * *

وتحرَّك الجيش إلى مُؤتة، وحين استشرف المسلمون عدوَّهم حَزرُوا جيش الروم بمائتى ألف مقاتـل... إذ رأَوْا صفوفًـا لا آخر لهـا، وأعدادًا تفوق الحصر والحساب..!!

ونظر المسلمون إلى عددهم القليل، فَوجِموا.. وقال بعضهم: «فلْنبعث إلى رسول الله، نخبره بعدد عدونا، فإما أن يُمدَّنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بالزحف فنطيع»..

بَيْدَ أَنَّ «ابن رَوَاحة» نهض وسْط صفوفهم كالنّهار، وقال لهم:

«يا قوم...

«إنّا والله، مانُقاتل أعداءنا بعدَد، ولا قوة، ولاكَثرة...

«ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكْرمنا الله به...

«فانطلقوا.. فإنما هى إحدى الحُسْنَيَيْنِ - النصر، أو الشهادة»...

وهتف المسلمون الأقلون عددًا، الأكثرون إيمانًا، ...

هتفوا قائلين:

«قد و الله، صدق ابنُ رَوَاحَة»..

ومضى الجيش إلى غايته، يلاقى بعدده القليل مائتى ألف، حشدهم الروم للقتال الضّارى الرهيب...

* * *

والْتَقى الجيشان كما ذكَرنَا من قبل...

وسقط الأمير الأول «زيد بن حارثة» شهيدًا مجيدا.

وتلاه الأمير الثانى «جعفر بن أبى طالب» حتى أدرك الشهادة فى غِبْطة وعَظمة..

وتلاه ثالث الأمراء «عبدالله بن رواحة» فحمل الراية من

يمين «جعفر».. وكان القتال قد بلغ ضراوته، وكادت القلة المسلمة تتوهُ فى زحام الجيش العَرَمْرَمِ اللَّجِب، الذى حشدَهُ هِرْقَل...

وحين كان «ابن رَوَاحة» يقاتل كجندى، كان يصول ويجول فى غير تردُّد ولا مُبَالاة...

أما الآن.. وقد صار أميرًا للجيش ومسئولاً عن حياته، فقد بدا أمام ضَرَاوة الروم، وكأنما مَرَّت به لَمْسةُ تردُّدٍ وتهيُّب، لكنه ما لبث أن استجاش كل قُوَى المخاطرة فى نفسه وصاح...

أقْسَمْتُ يَا نَفْسُ لَتَنْزِلنـه مالى أراكِ تكرَهينَ الجنَّه؟؟
يانفسُ إلا تُقْتَلى تمـوتى هذا حِمَام الموتِ قد صَلِيتِ
وما تَمَنَّيتِ فقد أُعْـطِيتِ إن تَفْعلى فعلهما هُـدِيتِ

يعنى بهذا صاحبيه اللَّذَيْنِ سبقاه إلى الشهادة: زيدًا، وجعفر...

* إن تَفْعَلى فِعْلَهُمَا هُدِيتِ.. *

وانطلق يعصف بالروم عَصْفًا...

ولولا كتابٌ سَبَق بأن يكون اليومَ موعدُهُ مع الجنة، لظلَّ يضرب بسيفه حتى يُفْنى الجموع المقاتلة... لكن ساعة الرحيل دقت معلنة بَدْءَ مسيرته إلى الله، فَصَعَد شهيدًا...

هوى جَسَدُه، فصعدت إلى الرفيق الأعلى رُوحُه المستبسلة الطاهرة...

وتحققت أغلى أمانيه:

حتى يُقالَ إذا مرُّوا عـلى جَدثى يا أرْشَد الله من غازٍ، وقد رَشَدَا

نعم.. يابن رَوَاحة..

يا أرشَدَ الله من غازٍ، وقَدْ رَشدا...!!!

* * *

وبينما كان القتالُ يدور فوق أرض البلقاء بالشام، كان رَسُول الله صلى الله عليه وسلم يجلسُ مع أصحابه فى المدينة، يُحَادِثهم ويُحادِثونه...

وفجأة، والحديث ماضٍ فى تهلل وطمأنينة، صمت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأَسْبَل جَفنيه قليلا.. ثم رفعهما لينطلق من عينيه بريق ساطع يُبَلِّله أسىً وحنان..!!

وطَوَّفَتْ نظراته الآسية بوجوه أصحابه وقال:

«أخذَ الرَّاية «زيد بن حارثة» فقاتل بها حتى قُتِلَ شهيدًا.

«ثم أخذَها «جعفر» فقاتل بها، حتى قُتلَ شهيدًا...

وصمت قليلا، ثم استأنف كلماته قائلا:

«ثم أخَذَها «عبد الله بن رَوَاحة» فقاتل بها، حتى قُتِلَ شهيدًا»...

ثم صمت قليلاً، وتألَّقت عيناهُ بومض متهلِّلٍ، مطمئن، مشتاق. ثم قال:

«لقد رُفِعُوا إلَيَّ فى الجنَّة»..!!

أيَّة رِحْلة مجيدة كانت..
وأىُّ اتفاق سعيد كان..
لقد خرجوا إلى الغزو معًا..
وصعدوا إلى الجنَّة معًا...

وكانت خير تحيَّة تُوجَّهُ لذكراهُم الخالدة، كلمات رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه:

«لقد رُفِعُوا إلَيَّ فى الجَنَّة»..!!